الفصل الثامن

أخلاقيات السعادة

الفصل الثامن

أخلاقيات السعادة

السعادة والحياة الكريمة

مـاذا يعـنى مفهوم السـعادة؟ و إلى أى حد فهم برتراند رسـل هـذا المفهوم الأخلاقى؟ وهل تعد السعادة فى فلسفة رسل نظرية أخلاقية تقوم على أسس علميـة كما كان فى نظرياته السـابقة؟ أم كانت السـعادة مفهومًا تطبيقيًا خرج من حيز الفكرة إلى حيز الوجود الفعلى المعيش حتى تتحقق بها الحياة الكريمة؟؟

السـعادة αυομιαδυΕ فى أصلها كلمة يونانية مؤلفة من مقطعين: (Eu) بمعنى «حسـن» أو «خير», ديمونيا (Demonia) بمعنى «الروح السـاكن» أو «المتلبس» فكلمة يوديمونيا كلمة يونانيـة تعنى السـعادة[1]. وهذا المصطلـح يعني في الأصل تدريب قدرات الإنسـان وتطويرها لكي يحقق ذاته، حتى تصل به إلى الكمال أو السـعادة، وتترجم فى العربية غالباً بالأداء الجيد أو المزدهر, وقد أخبرنا أرسطو بأن السعادة هي حقُّ اسم «الحياة الكريمة» أو «الطيبة»[2].

والسـعادة Happiness ضد الشـقاوة، وهى الرضا التام بما تناله النفس من الخير، والفرق بين السـعادة واللذة أن السـعادة خاصة بالإنسـان، وأن رضى النفس بها تام، على حين أن اللذة حالة مشـتركة بين الإنسـان والحيـوان، وأن رضى النفس بها مؤقت[3]. كـما أن اللذة pleasure

---

(1) ثناء جمال الدين محمد: السعادة عند أرسـطو، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة أسـيوط، 2010م، ص30.

(2) Robert C. Solomon, Kathleen Mohiggins: A short History of Philosophy, Oxford University press , 1996, pp. 64,65.

(3) جميـل صليبـا: المعجم الفلسفى، الجزء الأول، مرجع سابق، ص 656.

وجدان يصاحب إشباع الرغبات الشخصية، فهى تبقى ما بقى الفعل الذى أدى إليها، ولا يشعر بها إلا صاحبها، أما السعادة فتمتاز بالثبات والدوام. وكل فلسفة تمجد اللذة وتوحد بين الخير والقيم الحيوية لابد من أن تنتهى إلى القضاء على كل إحساس بالقيم لدى الفرد، إذ أنه بمجرد ما يستحيل الإنسان إلى عبد للملذات، فإنه لا يلبث أن يضحى بالأعلى فى سبيل الأدنى.

ويختلف مفهوم السعادة من فلسفة إلى أخرى، وذلك حسب مذهب كل فيلسوف، فقد رأى «السوفسطائيون» أن السعادة هى الاستمتاع بالأهواء، أما «أفلاطون» فيراها فى اتباع الفضيلة. ومنهم من يقول أنها فى الاستمتاع باللذات الحسية كما عند «المدرسة القورينائية»، ومنهم من يقول أنها فى العمل والجهد. أما «أرسطو» فإنه يوحد بين الخير الأعلى والسعادة، ويجعل اللذة شرطًا ضروريًا للسعادة لا شرطًا كافيًا، أما «أبيقور» فقد قال أن «اللذة» غاية الحياة، وفرق بين اللذة الثابتة واللذة المتغيرة، وجعل السعادة فى الأولى لا فى الثانية، لأن اللذة المتغيرة تورث الألم والإضطراب فى حين أن اللذة الثابتة أو الساكنة توصل إلى الطمأنينة، وهى وحدها مصدر الخير. ومذهب السعادة هو القول بأن السعادة العقلية هى الخير الأعلى، وهى غاية العمل الإنسانى سواءً كانت خاصة بالفرد أو المجتمع، ومذهب السعادة بهذا المعنى مقابل لمذهب اللذة الذى يقول بأن اللذة هى الخير الأعلى[1].

وفى معظم الأنساق الأخلاقية، بدءًا من أفلاطون وأرسطو، تعد السعادة هى الغاية القصوى لكل التصورات الأخلاقية، فقد عدها أفلاطون وأرسطو الخير الأسمى the supreme good وقد سايرهم فى هذا القول الكثير من فلاسفة الأخلاق، باعتبار أن الإنسان يبحث عن السعادة بطبيعته، و ينشدها فى جميع تصرفاته[2].

وعندما تغيرت رؤى الفلاسفة تجاه مفهوم السعادة، فإن ذلك لدليل على أن البشر أجمعين ينشدونها، حتى إذا لم يعرفوا على - وجه الدقة- ماذا عسى أن تكون تلك السعادة التى يصبون إليها !! وحينما قال بعض فلاسفة اليونان أن «السعادة» هى «الخير الأسمى» أو «الخير المطلق» فإنهم لم يكونوا يعنون بالسعادة مجرد «خير نسبى» متغير كاللذة، بل كانوا يعنون بها تلك «الغاية القصوى» التى ليس بعد غاية. ومعنى هذا أنهم كانوا يعدون «اللذة» جزئية، فى حين

(1) جميل صليبا: المعجم الفلسفى، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ص -656 657.
(2) Anthony Kenny: Philosophy in the Modern World, op. cit, p.220.

أنهم كانوا ينظرون إلى السعادة على أنها كلية[1]. وهذا يعنى أيضًا أن البشر هنا يطلبون الخيرات الأخرى مثل اللذة والقوة والثروة والحكمة من أجل السعادة، ولا يطلبون السعادة من أجل شيء أبعد منها، لذلك كانت السعادة هى الخير الأقصى[2].

وعلى هذا النحو سار- برتراند رسل- فقد رأى أن غاية الحياة التى يسعى الإنسان وراءها هى السعادة، كما كانت عند سابقيه من الفلاسفة الإنجليز، ويصل الإنسان إليها بمكافحة الخوف، وبتأكيد الشجاعة عن طريق التربية، وبإيصال البشر إلى درجات متصلة من الكمال من كافة النواحى، حيث أن الإنسان - فى تصور رسل- الأخلاقى قادر على تحقيق تقدم ضخم، على شريطة ألا يعوقه إحترام للطبيعة يقوم على الخرافة، لأن كل طبيعة، ومنها طبيعة الإنسان ذاتها، ينبغى أن تصير موضوعًا للدراسة العلمية، بهدف أن تنتج مزيدًا من السعادة[3].

والسعادة كما يقول رسل- فى مؤلفه «انتصار السعادة»The Conqnest of* [4] Happiness «نوعان وذلك على الرغم من وجود درجات وسطى بينها، والنوعان اللذان أقصدهما يمكن تمييزهما على أن أحدهما بسيط والآخر وهمى، أو أن أحدهما حيوانى والآخر روحانى، أو أن أحدهما للقلب والآخر للعقل»[4].

(1) زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مرجع سابق، ص131.

(2) محمد مهران: تطور الفكر الأخلاقى فى الفلسفة الغربية، مرجع سابق، ص 75.

(3) إ.م. بوشنسكى: الفلسفة المعاصرة فى أوربا، مرجع سابق، ص92.

(*) يشير الكاتب إلى وجود ترجمات أخرى لهذا الكتاب، فعنوانه الأصلى باللغة الإنجليزية هو The Conqnest of Happiness، وقد صدرت للكتاب ثلاث ترجمات باللغة العربية، هى كالتالى: ترجمة: سمير عبده، تحت عنوان «الفوز بالسعادة»، والكتاب من منشورات دار مكتبة الحياة، فى بيروت، لعام 1980م. والترجمة الثانية كانت تحت مسمى «غزو السعادة» وقام بترجمتها عن النص الإنجليزى «سمير شيخانى»، وقد صدر عن دار الأمير للثقافة والعلوم، فى بيروت، وطبعته الأولى عام 1995م. أما الترجمة الثالثة فهى التى اعتمد عليها الباحث بشكل كلى، بعد أن قام بمقارنة الترجمات الثلاث، فوجد أن ترجمة الدكتور: محمد قدرى عمارة، الأستاذ بكلية الزراعة جامعة أسيوط، هى الأدق من حيث الصياغة الفلسفية، والقدرة على تحليل النصوص بطريقة التجزئة، فقد قام المترجم هنا بتقسيم النصوص إلى فقرات، وأعطى لكل فقرة رقمًا حتى يتسنى للقارىء فهم كل فكرة من أفكار الكتاب على حده، وذلك على الرغم من كون الباحث قد اطلع على ترجمة «سمير عبده» البيروتية، فوجدها بالفعل دقيقة من حيث الصياغة الفلسفية، إلا أنها جاءت مقتضبة، لذا آثرت الترجمة المصرية للكتاب.

(4) برتراند رسل: إنتصار السعادة، ترجمة: محمد قدرى عمارة، مراجعة: إلهامى جلال عمارة، عدد 409، الطبعة الأولى، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م، ص154.

ولعل أبسط طريق لوصف الفرق بين النوعين من السعادة- كما يقول الفيلسوف محل الدراسة- «هو القول بأن نوعًا منهما متاح لأى إنسان، بينما النوع الآخر متاح للذين يمكنهم القراءة والكتابة فقط. فعندما كنت صبيًا عرفت رجلاً كان يتفجر سعادة، وكان عمله هو حفر الآبار، وقد كان طويلاً جدًا، وله عضلات غير معقولة، ولم يكن يستطيع القراءة أو الكتابة. وعندما سُمح له فى عام 1885م بالإدلاء بصوته فى انتخابات البرلمان، علم لأول مرة بوجود مثل هذه المؤسسات. وهنا لم تعتمد سعادة الرجل على مصادر فكرية، ولم ترتكز سعادته فى الاعتقاد فى القانون الطبيعى، أو كمال الأنواع أو الملكية العامة للمنافع العامة أو لأى من الطوائف الأخرى، وهى الأمور التى يعتبرها المفكرون ضرورية لاستمتاعهم بالحياة، فكانت سعادته تعتمد هنا على القوة البدنية، والكفاية من العمل، وفى التغلب على العقبات غير المنيعة فى صورة صخرة»[1].

فى حين يرى رسل أن أكثر الناس سعادة وفرحًا هم رجال العلم، حيث يقول: «أن أكثر القطاعات المتعلمة تعليمًا راقيًا فى المجتمع إحساسًا بالسعادة هم رجال العلم. فالكثير من رجال العلم البارزين بسطاء عاطفيًا ويحصلون من عملهم على إشباع يكون عميقًا لدرجة أنهم يستطيعون أن يجدوا متعة فى الطعام وفى الزواج أيضًا. أما الفنانون والأدباء فإنه من المؤكد ألا يكونوا سعداء فى زواجهم، بينما رجال العلم عادة ما يظلوا قادرين على الاستمتاع بنعمة الحياة العائلية قديمة الطراز»[2].

والسبب فى ذلك - كما يقول فيلسوفنا- يرجع إلى «أن الأجزاء العليا من ذكاء رجال العلم دائمًا تكون مشغولة كليًا بعملهم، ولا يسمح لها بالتدخل فى مناطق أو مجالات ليس أمامها دور تؤديه فيها. وهم سعداء فى عملهم لأن العلم الحديث تقدمى، كما أن أهميته غير مشكوك فيها سواء من قبل أنفسهم أو من قبل من هم خارج اختصاصهم. ولذلك لا ضرورة عند رجال العلم للعواطف والانفعالات المعقدة، لأن العواطف البسيطة لا تواجه أى عقبات. كما أن التعقيد والاضطراب فى العواطف والانفعالات كالزبد على صفحة النهر، ينتج عقبات تعكر مجرى الحياة الناعمة، ولكن الطاقات الحيوية لا تتعكر، ولا ينتج عنها أى تموجات على السطح، ولا تبدو قوة هذه الطاقات لغير المراقب الفطن»»[3].

(1) المصدر السابق: ص154.

(2) المصدر السابق: ص156.

(3) المصدر السابق: ص ص -156 157.

ويضيف رسل «أن جميع حالات السعادة تتحقق فى حياة رجل العلم، فلديه النشاط الذى يستغل طاقاته بكاملها، ويتوصل لنتائج تظهر أهميتها ليس له فقط ولكن للجمهور العام، حتى وإن عجز الجمهور عن فهمها بأى درجة من درجات الفهم. وهو فى ذلك يعد أكثر حظًا من الفنان، فعندما لا يفهم أفراد الجمهور لوحة أو قصيدة معينة، يقررون فى الحال أنها لوحة رديئة أو قصيدة سيئة. أما عندما لا يفهمون النظرية النسبية فإنهم يقررون أن تعليمهم لم يكن كافيًا، لذلك كان «أينشتين» مكرمًا ومبجلاً بينما تُرك أعظم الفنانين والرسامين للموت جوعًا على أسطح المنازل، ولذلك كان «أينشتين» سعيدًا بينما الفنانون تعساء»»[1].

من خلال ما سبق، يرى الكاتب هنا - أن رسل كادت أن تطغى على جل تفكيره النزعات العلمية، فهو بلا شك فيلسوف العلم بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لذا تأثرت نظرياته القيمية بنزعته العلمية التى أراد أن يصبغها على كل فلسفته، فليس عجبًا أن يرفع- رسل- رجال العلم فى أعلى الدرجات الإنسانية، بوصفهم أكثر الناس حظًا فى السعادة، وعلى النقيض نراه يخفض من قيمة الفنانين والرسامين، ورجال الفنون، بوصفهم أقل الناس حظًا فى السعادة.

إن ما سعى إليه رسل هنا هو نتيجة حتمية لنزعته العلمية، فكما حاول أن يقرن الحب بنظرية المعرفة، نراه هنا يقرن السعادة بنزعته العلمية، وإن كانت نظريته فى السعادة تختلف إلى حد بعيد عن فلسفته العلمية، وذلك فى كون الأولى دراسة تطبيقية واقعية، بينما تقبع الثانية داخل إطار التنظير والبحث. فى حين أغفل رسل دور الفنانين والرسامين فى إحساسهم بالسعادة والحياة الكريمة، بل يمكن القول أن رسل هنا أسقط من فلسفته برمتها الدراسات الإستطيقية والفنية، التى يعدها بعض فلاسفة الأخلاق ذاتهم أمثال «بيرتون بورتر» الفرع الرابع من الفلسفة، والتى كثيرًا ما تضم إلى الأخلاق ويجمع بينهما تحت عنوان نظرية القيمة أو الأكسيولوجيا Axiology[2]. أو كما جاء على لسان «هنتر ميد» أن علم الجمال ربيب الفلسفة، وأصغر أبناءها، حيث أنه احتفل منذ عهد قريب جدًا بعيد ميلاده المائتين بوصفه فردًا معترفًا

(1) المصدر السابق: ص157.

(2) بيرتون بورتر: الحياة الكريمة، الجزء الأول، مرجع سابق، ص40.

به فى الأسرة الفلسفية[1]. وبالتالى فإن إغفال هذا الجانب المهم فى الدراسات الفلسفية والقيمية يعد خطأً فادحًا، وقعت فيه فلسفة برتراند رسل.

وتأكيدًا لما سبق، عندما أُجريتْ المحاورة بين رسل وأحد المقدمين للبرامج الإذاعية، وجه المذيع مجموعة من التساؤلات - للفيلسوف محل الدراسة- عما إذا كان يشعر بالسعادة فى حياته أم لأ؟ وذلك بعد أن بلغ رسل أرذل العمر، فأجاب حينها «لقد مرت بى فترات سعيدة وفترات تعيسة، ومن حسن حظى اليوم أن أرى فترات السعادة تطول كلما هرمت»[2].

وأما فترات التعاسة فيراها فيلسوفنا- أنها تتمثل فى فترة المراهقة من حياته، حيث يقول «أعتقد أن كثيرًا من المراهقين تعساء، فلا أصدقاء ولا إنسان يمكن التحدث إليه. فكنت أغذى فى نفسى فكرة الانتحار، وكنت أعتقد أننى سأشعر بالألم الشديد إذا ما قاومت هذا الإندفاع- ولم يكن ذلك صحيحًا فى الواقع. وكنت أعتبر نفسى بالطبع تعيسًا إلى أبعد حد، ولكنى لم أكُنه إلا جزئيًا»[3].

ويشرح رسل الكيفية التى خرج بها من عالم التعاسة المتمثل فى فترة المراهقة والإقدام على الانتحار، إلى السعادة التى تغمره الآن فيقول: «لقد وعيت ذلك بفضل حُلم، حيث حلمت مرة أننى مرضت مرضًا شديدًا أشرفت معه على الموت. وكان على رأس سريرى، ويا للغرابة، الأستاذ «جويت» والأستاذ «ده بايّول» و«مترجم أفلاطون» وهو رجل واسع العلم وصديق للعائلة. كنت أقول له بكثير من العاطفة: «وبعد! فإن ما يعزينى هو أننى سأترك كل هذا تقريبًا» وأجابنى بصوته الجهورى البارز: «هل تعنى الحياة؟» فقلت: «أجل، الحياة.» ورد هو قائلاً: «لن تعود إلى ترديد مثل هذا الهراء عندما تصبح طاعنًا فى السن» واستيقظت، ولم أعد بالفعل، إلى ترديد مثل ذلك الهراء»[4].

---

(1) هنتر ميد: الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة: فؤاد زكريا، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1975م، ص354.

(2) برتراند رسل: العالم فى مفهوم برتراند رسل، مصدر سابق، ص73.

انظر أيضًا- هنرى توماس ودانالى توماس: المفكرون من سقراط إلى سارتر، ترجمة: عثمان نويه، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م، ص511.

(3) برتراند رسل: العالم فى مفهوم برتراند رسل، مصدر سابق، ص73.

(4) المصدر السابق: ص74.

ويؤكد رسل فى محاورته أن عناصر السعادة فى الحياة أربعة، أولها: الصحة، حيث يرى فيلسوفنا «أن هناك حالات صحية تمنعك فعلاً من أن تكون سعيدًا، فمنها ما يصيب الفكر، ويجعل منك شخصًا يوجب الشفقة. ومن الآلام ما يمكن أن تتحمله على مضض، ومنها ما لا يمكن احتماله على الإطلاق، فالصحة تجعل المرء سعيدًا، والإنسان السعيد أقل تعرضًا للمرض من غيره»[1].

أما العنصر الثانى من عناصر السعادة، فيراه رسل فى «المداخيل ويقصد بها المال، فالمداخيل مهمة، حيث تتعلق بالمستوى الذى يعتاده المرء فى حياته، فأكثر الناس يعيش فى رعب مخافة المأوى، وهذا كثير الحدوث، فالمال لون من الحاجة الدنيا»[2]. لذلك كان هناك إفتراض ينطوى على أن السعادة تأتى عن طريق إمتلاك الثروة والمواد الحسية، فالذى يملك بيتين وسريرين ورغيفين يكون أكثر سعادة من الشخص الذى يملك بيتًا واحدًا، وسريرًا واحدًا، ورغيفًا واحدًا، فالسعادة ترتبط كثيرًا بعملية الدخل[3]. حيث أن للقوة الإقتصادية بجميع فروعها تأثيرًا كبيرًا على الإقتصاد الوطنى، وذلك لأنها تدور حول محور الإئتمان[4].

ولكن ثار بعض الناس على هذه النظرة المادية تجاه السعادة، معتمدين فى ذلك على الدين، فى حين أن هؤلاء أيضًا كانوا يسعدون عندما تزداد دخولهم عن طريق الوعظ والإرشاد الدينى[5].

ويأتى ثالث العناصر متمثلاً فى «العلاقات مع الآخرين» وهنا يراه رسل مهمًا، حيث كان المفترض أن يكون العنصر الثانى بعد الصحة مباشرة، ويقصد بها الصداقة، والحب، والعلاقات التى تربط المرء بأولاده، وبالتالى الود مع الآخرين. إن الحياة شاقة إذا كانت هذه العلاقات تعيسة»[6].

ويرى رسل أن الحب هو سبب الإحساس بالآمان، فالذين يواجهون الحياة بإحساس الأمان هم أسعد من أولئك الذين يواجهونها بإحساس عدم الأمان، طالما كان إحساسهم

(1) المصدر السابق: ص75.

(2) المصدر السابق: ص76.

(3) Bertrand Russell: Sceptical Essays, op. cit, p.82.

(4) William Orton: The social Philosophy of Mr. Bertrand Russell, The American Econmic Review, Vol, 14, No. 2 (Jun, 1924), pp.209-226.

(5) Bertrand Russell: Sceptical Essays, op. cit, p.83.

(6) برتراند رسل: العالم فى مفهوم برتراند رسل، مصدر سابق، ص157.

بالأمان لا يؤدى بهم إلى كارثة. وفى كثير من الأحيان، وليس جميعها، يساعد الإحساس بالأمان الشخص على تجنب الأخطار التى يمكن أن يقع فيها غيره، فإذا كنت تسير على لوح خشبى ضيق فوق هاوية أو خندق فوق لوح خشبى، فمن المرجح جدًا أن تسقط إذا أحسست بالخوف أكثر مما إذا كنت لم تشعر به. وهذا النوع من الثقة بالنفس فى اعتياد الحياة يتأتى أكثر من أى شىء آخر من اعتياد استقبال النوع الصحيح من الحب بالقدر الذى يكون المرء بحاجة إليه، وهذا يعد مصدرًا للذة»[1].

ويؤكد رسل أن الحب - بمدلول الاهتمام الحقيقى المتبادل لفردين أحدهما فى الآخر - لا يعد وسيلة لخير كل منهما، وإنما الحب توليفة تشتمل على أمر طيب وخير بصفة عامة، وهو أهم عناصر السعادة الحقيقية. والشخص الذى يحصر ذاته داخل جدران فولاذية من المستحيل توسعتها، يفقد بذلك أفضل ما يمكن للحياة أن تقدمه، مهما كان ناجحًا فى عمله. فالطموح الذى يستبعد الحب من مجاله الخاص هو بصفة عامة ناتج من نواتج نوع معين من الغضب أو الحقد على السلالة البشرية، أنتجته التعاسة فى الشباب، والظلم فى الحياة اللاحقة، أو أى من المسببات التى تؤدى إلى هوس الاضطهاد. فالذات شديدة القوة عبارة عن سجن يجب على المرء أن يهرب منه إذا أراد أن يستمتع بالعالم استمتاعًا كاملاً»[2].

وللحب عند رسل صورٌ أخرى، فتارة يربط الحب بالمعرفة، وتارة يؤكد على أهمية الحب فى الأسرة والعائلة أى بين الآباء والأبناء، فيرى أن أساس الأسرة يكمن بالطبع فى حقيقة كون الوالدين يحسون بنوع خاص من الحب تجاه أبنائهما، وهذا الإحساس يختلف عن ذلك الذى يحسونه تجاه أحدهما الآخر، أو تجاه الغير من الأطفال. فحقًا أن بعض الآباء والأمهات يحسون بقليل من الحب الأبوى، أو لا يحسونه بالمرة، كما أن هناك بعض النساءِ لا يشعرن بالحب على غير أطفالهن فى نفس الوقت الذى لا يشعرن بالحب على أطفال الغير. وتبقى الحقيقة الواضحة، وهى أن الحب الأبوىَّ هو نوعٌ خاصٌ من الإحساس يحسه الشخص الطبيعى تجاه أبنائه أو أبنائها، وليس تجاه أى إنسان آخر[3].

(1) برتراند رسل: إنتصار السعادة، مصدر سابق، ص193.
(2) المصدر السابق: ص200.
(3) المصدر السابق: ص216.

إن الحب الخاص الذى يكنه الآباء لأبنائهم، له قيمة كبرى لكل من الآباء والأبناء، فقيمة حب الآباء لأبنائهم تكمن بدرجة كبيرة جدًا فى حقيقة كونه حُبًا يمكن الاعتماد عليه أكثر من أى حب آخر. فأصدقاء المرء يحبونه لمزاياه وأخلاقه الخاصة، والعاشق يحب معشوقته لجمالها الفتان، فإذا تقلص الجمال والأخلاق هنا يتلاشى الأصدقاء والعشاق. أما فى أوقات الشدة فنجد أن حب الآباء لأبنائهم هم ما يمكن الاعتماد عليه فى المرض مثلاً أو حالات الخزى والعار، إن كان الآباء فى هذه الحالة من الطراز السليم. وهذه حقيقة غير قابلة للجدل، حيث أننا نشعر بالآمان مع الآباء أكثر من أى شخص آخر، وقد يبدو ذلك عديم الاهمية فى أوقات النجاح مثلاً، ولكنه فى أوقات الفشل يمدنا بالطمأنينة والآمان اللذين لا نجدهما فى أى مكان آخر[1].

وبعد ذلك اتجه رسل لتحليل الكيفية التى يرتبط فيها الحب بالمعرفة، حيث أن ارتباط الحب بالمعرفة - كما يقول- شرط تحقق الحياة الكريمة التى تغمرها السعادة، والسعادة هى الغاية العليا والخير الأقصى التى يسعى كل إنسان على ظهر البسيطة فى تحقيقها، لذلك أكد رسل على ضرورة اجتماع كل من الحب والمعرفة فى تحقيق الحياة الكريمة، و«الحياة الكريمة هذه لا تتحقق بالحب دون المعرفة، ولا تتحقق بالمعرفة دون الحب»[2]. وهنا يضرب رسل مثالًا على وجود الحب دون المعرفة، فيقول: «أنه فى العصور الوسطى، وعندما ظهرت الأمراض والأوباء فى أحد الأقطار، نصح القديسون عامة الناس بالاجتماع فى الكنائس، والصلاة من أجل النجاة، وكانت النتيجة المترتبة على اجتماعهم، هى انتشار العدوى بسرعة فائقة بين الجماهير المزدحمة الراجية النجاة[3]. والمثال الآخر يضربه رسل على وجود المعرفة دون الحب، والتى تؤدى بدورها إلى عدم تحقق الحياة الكريمة على الأرض، وهو ما حدث فى الحرب العالمية من هلاك وتدمير، فكانت النتيجة هى الموت زمرة واحدة[4].

وعلى الرغم من أهمية كل من الحب والمعرفة فى تحقيق السعادة للحياة الكريمة، إلا أن رسل يقدم الحب على المعرفة، وذلك لكون الحب أكثر أهمية، حيث يؤدى بالناس الأذكياء إلى طلب المعرفة ليكتشفوا كيف يفيدون benefit هولاء الذين يحبونهم. ولكن إذا لم يكن الناس

(1) المصدر السابق: ص ص-217 218.

(2) Bertrand Russell: What I Belive, op. cit, p.349.

(3) Ibid: p.349.

(4) Ibid: p.349.

أذكياءً، فإنهم سيقنعون بأن يصدقوا ما يخبرون به، وربما يرتكبون أضرارًا، وذلك على الرغم من ولعهم الشديد والصادق لفعل الخيرات إلى أبعد الحدود[1].

إن رسل لا يريد للحياة الكريمة أن تتوقف على النية الحسنة فقط، بل يريدها أن تتوقف على جهودنا القائمة على الحب المستند إلى المعرفة، فالطب يقدم أفضلَ مثل لما أعنيه، إذ أن الطبيب البارع أكثر نفعًا للمريض من صديق كرس نفسه لخدمته إلى أبعد حد، والتقدم فى المعرفة الطبية مفيد بصورة أكثر بالنسبة لصحة المجتمع من الحب المصطنع أو المزيف للبشرية[2]. فالمعرفة العلمية هنا مفيدة فى تحديد الوسائل لبلوغ الغايات المنشودة، والوصول إلى الغاية المنشودة هى مسألة تخص العلم وحده لاكتشاف كيفية الوصول إليها[3]. ولذلك كان أول واجب علينا هو أن نحدد فى أذهاننا تحديدًا جليًا نوع الحياة التى نعتقد أنها خير للبشرية، وكذلك نوع التغيير الذى نريد إحداثه فى هذا العالم[4].

ويأتى أخيرًا العنصر الرابع من عناصر السعادة، ويراه رسل متمثلاً فى العمل المكلل بالنجاح، فقد وضعه فى مكانٍ عالٍ جدًا، وذلك بالقياس إلى إنسانٍ نشيط، فهناك كما يقول الفيلسوف محل الدراسة- أناس ليس للعمل لديهم همٌّ مُقيمٌ، ولكن إذا كان لدى المرء طاقة ما، فإن عليه أن يجد منفذًا لتصريفها، والعمل هو الذى يؤمن ذلك على أفضل وجه. ومن الطبيعى أن عملك إذا لم ينتج ما هو مؤمل منه كنت تعيسًا، ولكنك إذا نجحت، كانت أيامك مليئةً بالفرح، وأضفى العمل كثيرًا على سعادتك[5]. أما وضاعة الأعمال أو سموها فهى كما يقول رسل: «مسألة مزاج، فهناك أناس لا يحسون بالسعادة إلا إذا قاموا بأعمال كبيرة، وبعضهم يكتفى بعمل متواضع، ولكن ينبغى أن يكون عملنا على قدر طاقاتنا، وذلك على نحو يؤدى إلى نتائج»[6].

---

(1) Ibid: p.349.

(2) أحمد الصادق إبراهيم: الأخلاق عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص166.

(3) المرجع السابق: ص168.

(4) برتراند رسل: نحو عالم أفضل، مصدر سابق، ص176.

(5) برتراند رسل: العالم فى مفهوم برتراند رسل، مصدر سابق، ص77.

(6) المصدر السابق: ص78.

ويؤكد رسل أن العمل يعد مرغوبًا فى البداية كوقاية من الملل، لأن الملل الذى يشعر به المرء عند أدائه عملاً ضروريًا وإن كان غير شائق، لا يمثل شيئًا بالنسبة للمل الذى يشعر به المرء عندما يكون لديه شيءٌ يفعله بأيامه المتوالية. ويرتبط بهذه الميزة من مزايا العمل ميزة أخرى وهى أنها تجعل أيام العطلة أكثر بهجة عندما تأتى، ومن المرجح أن يجد المرء لذة أكبر فى وقت الراحة عما يمكن للرجل العاطل أن يجده شريطة ألا يكون عليه أن يعمل بشدة تؤدى إلى تلف صحته»[1]. كما أن: «العمل يوفر فرصًا للنجاح ومجالًا للطموح»[2]. فالعمل- منظورٌ إليه باعتباره جهدًا يبذل لفعل شيء ما، أو لصناعة شيء ما - هو الوسيلة الفريدة والغاية الوحيدة للسلوك الخلقى[3]. ولذلك كان العمل الناجح من أهم عوامل حصول الإنسان على السعادة والحياة الكريمة.

وهنا يشير رسل إلى حقيقة مؤداها «أنه ليس العلماء الأفذاذ وحدهم الذين يستمدون المتعة من العمل، ولا رجال الدولة القياديين فحسب يستطيعون الحصول على المتعة من خلال دفاعهم عن قضية ما. فمتعة العمل متاحة لكل فرد يستطيع تنمية مهارة خاصة شريطة أن يستطيع الحصول على الإشباع من ممارسة مهارته دون الرغبة فى الحصول على الاستحسان العام[4]. وعلى هذا كان سر السعادة أن يجعل المرء اهتماماته واسعة قدر الإمكان، وأن يجعل ردود أفعاله ودودة لا عدائية بأقصى درجة ممكنة تجاه الأشياء والأشخاص الذين يهمونه[5].

ولكن..إذا كانت الصحة والحب والمال والعمل هى عناصر السعادة الأربعة التى أشار إليها رسل فى كتاباته، فما هى العوامل التى تقف حجر عثرة فى تحقيق هذه السعادة؟؟

يرى رسل: «أن الأشياء التى تعوق الوصول إلى السعادة كثيرة، حتى ولو استثنيت العوامل المناقضة للعناصر الأربعة التى تكلمت عنها آنفًا. وهناك ما لا أنصح به إذا أراد المرء

(1) برتراند رسل: إنتصار السعادة، مصدر سابق، ص228.
(2) المصدر السابق: ص229.
(3) فيكتور س. فيركيس: الإنسان التكنولوجى - الأسطورة والحقيقة، ترجمة / زكريا إبراهيم، يوسف ميخائيل أسعد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1975م، ص55.
(4) المصدر السابق: ص161.
(5) المصدر السابق: ص168.

أن يحيا سعيدًا: إنه الضيق، وقد حققت بعض التقدم من هذه الزاوية، عندما كبرت وأصبحت جد سعيد. فلكى أتجنب العذاب أنشأت لنفسى نظامًا عمليًا، ورحت أقول: «هيا، ماذا يمكن أن يحدث فعلاً أسوأ من الآن؟؟» ومن ثم فكرت: بعد كل هذا لن يكون الأمر جد خطير، فى مائة عام، بل إننى أعتقد أنه لن يكون له أية أهمية. فعندما تجبر نفسك فى التفكير على هذا النحو، ينتهى بك الأمر إلى أن تحس بأقل ما يمكن من الضيق، و إذا كنا نسبب لأنفسنا همًا، فذلك لأننا نحب ألا ننظر إلى الإمكانات غير المواتية وجهًا لوجه»[1].

وانتقل رسل للحديث عن العامل الأهم الذى يمنع الحصول على الحياة الكريمة، فرآه متمثلاً فى «الحسد» فالحسد كما يقول فيلسوفنا من مسببات التعاسة، وعائق من عوائق الوصول إلى السعادة، فهناك الكثير من الناس يجعلهم الحسد تعساء للغاية، فبدلاً من أن يتمتعوا بما لديهم من مباهج، تراهم يفقدون كل لذة نتيجة تفكيرهم فى أن فلانًا يملك أكثر مما يملكون، وأنه ينبغى أن يكون مساويًا لهم»[2].

وفى الحقيقة يرى رسل: «أن الحسد صورة من صور الرذيلة، وهذه الرذيلة جانب منها خلقى والآخر منها ذهنى، وهى عبارة عن عدم رؤية الأشياء فى ذاتها، و إنما فى علاقاتها ببعضها البعض. فعلى سبيل المثال إذا كنت أكسب راتبًا يكفينى لسد جميع احتياجاتى، فعلي أن أكون قانعًا وراضيًا به، ولكنى أسمع أن شخصًا آخر، ليس أفضل منى على الإطلاق، يتقاضى راتبًا يعادل ضعف راتبى، ففى التو واللحظة إذا كانت طبيعتى حسودة سرعان ما أفقد الرضى والقناعة فيما أكسب، و يأخذ الحسد يأكل فى قلبى و يؤرقنى بسبب تفكيرى فى الظلم الذى لحق بي. والواقع أن علاج كل هذا هو التنظيم العقلى والإقلاع عن التفكير فى الأمور الغير مجدية»[3].

ولكن...

إذا كانت الحياةُ مليئةً بالضيق والتعب والحسد والتنافس، ولا فرار من الآلام فيها، فمن هو الإنسان السعيد إذن؟

(1) برتراند رسل: العالم فى مفهوم برتراند رسل، مصدر سابق، ص ص-79 80.
(2) المصدر السابق: ص80.
(3) برتراند رسل: إنتصار السعادة، مرجع سابق، ص95.

يرى رسل أن الإنسان السعيد هو ذلك الإنسان الذى يحيا بموضوعية، بالإضافة إلى كونه يمتلك العواطف الحرة والاهتمامات الواسعة، ويضمن سعادته من خلال هذه العواطف الحرة، لأنها تجعله فى موضع حب واهتمام الكثيرين. ومن المسببات القوية للسعادة أن تكون مستقبلاً للحب، ولكن الإنسان الذى يطلب الحب ليس هو بالضرورة الشخص الذى يناله، وعلى كل حالٍ إن الشخص الذى يستقبل الحب هو ذلك الشخص الذى يعطى الحب، ومن غير المجدى محاولة منح الحب كأمر محسوب بالطريقة التى يفرض بها الشخص مالاً بفائدة (كالربا مثلاً) لأن الحب المحسوب ليس حقيقًا وصادقًا، ولن يحس الذى يستقبله أنه كذلك»[1].

أما الحياة الكريمة التى يحياها الإنسان السعيد، فيشير إليها رسل بقوله «والحياة الكريمة- كما أتصورها- حياة سعيدة، ولست أقصد أن الرجلَ الطيبَ رجلٌ سعيدٌ، وإنما أقصد أن الرجل السعيد لابد أن يكون طيبًا. إن البؤسَ عميقُ الجذور فى نفوس أكثر الناس، فكم من الناس - كما نعرف جميعًا- يسير فى حياته متظاهرًا بالسرور، وهو مع ذلك دائم السعى وراء التخدير سواء بالخمر أو بغيرها من الوسائل. أما الرجل الطيب فلا يحب التخدير، ولا يحسد جاره فيمقته، وهو يستطيع أن يعيش بدوافعه الطبيعية كالطفل الذى يمتلك السعادة الطيبة»[2].

وهنا يوضح رسل للقارىء صدق قلبه، وعظيم إحساسه، من أجل أن يحيا كل إنسان الحياة الكريمة، التى هى بالفعل حياة الكرامة والحرية، حتى يكون الناتج منها ما يسمى بالإنسان السعيد، فيقول: «أود أن أبذل كل جهدى لتحرير الناس من الخوف، ولا أعنى الخوف الذى نعيه وحده، ولكنى أعنى كذلك المخاوف القديمة البدائية الحبيسة التى جئنا بها من الغابة. وأود أن أوضح - وذلك ليس بمجرد الفرض العقلى، ولكن كموضوع يؤمن به القلب من تلقاء نفسه - أننا لا نحقق السعادة لأنفسنا بإنزال الألم بالآخرين، وإنما السعادة والطريق إليها تتوقف على الانسجام مع غيرنا من الناس. وحينما لا يكون ذلك كله صادرًا من أعماق القلب وليس مفهومًا بالعقل فحسب، عندئذ يمكن أن يعيش المرء بطريقة تجلب السعادة لنا ولغيرنا على السواء. وإذا أمكن للناس أن يفكروا ويشعروا بهذه الطريقة، تبددت مشكلاتهم الشخصية، كما

(1) المصدر السابق: ص266.

(2) برتراند رسل: التعقل الفلسفى فى عالم متغير، مقال منشور فى «آراء فلسفية فى أزمة العصر»، تأليف: أدريين كوخ، ترجمة: محمود محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1963م، ص319.

تبددت أيضًا كل مشكلات السياسة العالمية، حتى أكثرها تعقيدًا وأشدها صعوبة، عندئذ يتكشف جمال الطبيعة، وتتضح معالم الطريق بغتة، كما يحدث عندما ينقشع الضباب من قمة الجبل. لقد بات من الضرورى أن نفتح نوافذ قلوبنا وعقولنا لنتيح للشياطين الحبيسة أن تخرج، ونسمح لجمال الدنيا أن يستولى على النفوس»[1].

وخُلاصة القول: إن العالم فى حاجة إلى فلسفة أو دين يعمل على تنمية الحياة، ولكننا إذا أردنا أن نساعد على نمو الحياة فيجب أن يكون لدينا شىء آخر نقدره غير الحياة نفسها، فإن الكائن الحى الذى ليس له من هدف سوى الحياة نفسها، هو حيوان ليس فيه من القيم الإنسانية الحقيقة شىء. فلكى تكون الحياة إنسانية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى، يجب أن نجعلها تهدف إلى تحقيق غاية تبدو - بصورة ما- خارج نطاق الحياة البشرية، غاية غير شخصية وفوق مستوى البشر، مثل الله أو الحقيقة أو الجمال[2].

(1) المصدر السابق: ص ص-320 321.

(2) برتراند رسل: نحو عالم أفضل، مصدر سابق، ص190.

تعقيب عام

لقد صرحت فى الفصل السابق أنه على الرغم من عدم قبول نظرية رسل فى الجنس والزواج «إلا أن أهم ما تمتاز به فلسفتة أنها غير منغلقة على نفسها فى إطار عقائدى أو فكرى محدود وثابت، بل إنها فلسفة منفتحة تتأثر بالأحداث والنظريات العلمية والفلسفية، فتأخذ منها وتزيد عليها الكثير، وبذلك تُنّمى المعرفة الفلسفية وتفتح لها أبوابًا جديدة فى الموضوع والطريقة معًا».

ولكن وبحقٍ، عندما تعرض رسل لمناقشة موضوع السعادة والحياة الكريمة التى يريد كل إنسان أن يحياها، كانت رؤيته هنا كاملة من حيث المضمون الفلسفى، فقد عالج الموضوع من خلال تجربته الحياتية التى عاناها منذ الصغر، إلى أن سار سعيدًا عند الكبر، ومن العجيب هنا أن نرى رؤية رسل فى نظرية السعادة تتفق فى كثير من الأحوال مع رؤية الأديان بصفة عامة، فقد عول رسل على أهمية الصحة، وأعطاها الأولية فى عناصر السعادة، ثم اتجه إلى الحب ورآه عنصرًا أساسيا، يدعو الإنسان إلى المحبة والتعاون، لا سيما الحب الأبوى داخل الأسرة الواحدة، ولكن قصد رسل هنا الحب بالمعنى الكلى للمفهوم. ثم اتجه رسل لمعرفة أسباب التعاسة ومسبباتها، فرأى أن الحسد من أهم المعوقات التى تعوق الحياة الكريمة برمتها، وكذلك الحقد والألم، إلى غير هذه الأمور التى لا يقرها دين من الأديان.